سير الزمان

تحول المشرق الأوربي

واتجاهات سياسة الدول الاوربية

روسيا والمدنية الحديثة

لابرهيم ابرهيم يوسف

تحول الشرق الاوربي

واتجاهات سياسة الدول الاوربية [1]

بريطانيا وفرنسا وروسيا وايطاليا

في يوم ١١ سبتمبر من السنة الماضية القى السر صموئيل هور خطبة في جنيف كانت في رأي فريق كبير من الناس اعظم خطبة القيت فيها. فقد حدّد في فقراتها الاركان التي تقوم عليها سياسة فعالة لجامعة الامم. نعم ان جنيف تعوّدت الخطب الطنّانة، ولكنها أصغت الى هذه الخطبة واستجابت فكان ذلك باعثاً على دهشة المتشائمين. واصبحت الجامعة بعدها قوة تستطيع ان تدفع التاريخ في وجهة معيّنة. وكذلك تحوّل ما كان في السابق من العبارات المثالية، عملاً فعّالاً فهل يشير الى الغد؟

ان الردّ على هذا السؤال يتوقف على تفاعل القوى التي تعين خطط الامم الكبرى. وخطط الامم الكبرى، صُوَر مركّبة، تلتقي فيها المثل العليا التي ينشدها الشعب، وخطط السياسة الداخلية، واحوالها الاقتصادية. فاذا شئنا ان نفهم شيئاً عن القوى التي تحدّد الاتجاه الحالي للسياسة العالمية، وبواعثها ومقتضياتها، وجب علينا ان نحلّل تحليلاً دقيقاً الحالة الداخلية، في الامم او طوائف الامم التي تشترك في هذا الاتجاه. فالمسألة ليست مسألة نزاع بسيط، بين الاثرة والايثار، او بين المكر والاخلاص، او بين النزوع الى البسطة وحب السلام، فهي ليست شيئاً من هذه الاشياء وحده، ولكنها جميع هذه الاشياء معاً

بريطانيا

اعترف السر صموئيل هور في خطبته بجنيف، بالاخطاء التي ارتكبتها حكومة بريطانيا او الشعب البريطاني في الماضي اسوةً بسائر الحكومات والشعوب. ولا يعرف احد الاخطاء الخاصة التي ارادها الوزير البريطاني الا الوزير نفسه. ولكن من المؤكد ان خطة بريطانيا بوجه عام انقلبت انقلاباً تامًّا في اوائل يونيو سنة ١٩٣٥. ففي ذلك الشهر تغيّرت الوزارة البريطانية، فخلف المستر بولدوين المستر مكدونلد في رآسة الوزراء، والسر صموئيل هور السر جون سيمون في وزارة الخارجية، وفيليب كنايف لستر لورد لندندري في وزارة الطيران. فظنّ بعض الناس

---

(١) هذا مقال لدوغلاس ميور Stapler مؤسس ومحرر « دوغلس فرانكفورت » وعضو الريخستاغ سابقاً ومؤلف كتب اقتصادية مختلفة في شؤون اوربا، نشرته مجلة الشؤون الخارجية الاميركية في عدد يناير ١٩٣٦، وقد نقلناه هنا على انه عرض لاحوال اوربا غير مقيدين برأيه

ان التغيير لا يعدو كونه تغييراً في الرجال وحجتهم ان المستر بولدون كان ، وهو زعيم المحافظين ، زعيم الحكومة لما كان مكدونلد رئيسها وان هور نفسه كان عضواً في الوزارة القومية منذ انشائها. ولكن هذا التغيير كان في الواقع تغييراً في اتجاه سياسة بريطانيا .

وما انقضت ثلاثة اسابيع على اعادة تأليف الوزارة القومية ، حتى اذيعت نتائج « استفتاء السلام » الذي بدأته العصبة الانكليزية لجامعة الامم برآسة ڤيكونت روبرت سسل في شهر يناير السابق. وكانت الاسئلة التي وجّهت الى الشعب البريطاني ، تدور حول موقف بريطانيا من جامعة الامم ونزع السلاح والعقوبات. هل يجب على بريطانيا ان تبقى عضواً في الجامعة ؟ وهل يوافق صاحب الردّ على نقص عام شامل في التسلح بالاتفاق الدولي ؟ وهل يوافق على الغاء تام للطائرات الحربية البحرية بالاتفاق الدولي ؟ وهل يجب ان تبقى صناعة الاسلحة صناعة يقوم بها افراد وشركات او يجب ان تصبح ملكاً للدولة ؟ واذا هاجمت دولة ما دولة اخرى فهل يجب على الدول الاخرى ارغامها على التراجع بوسائل اقتصادية غير عسكرية او بوسائل عسكرية اذا اقتضى الامر ذلك ؟

وقد كان عدد الذين اشتركوا في الردّ على هذه الاسئلة ١١٫٦٢٨٫٠٠٠ من الانكليز كان منهم عشرة ملايين في جانب العقوبات الاقتصادية و ٦٫٨٠٠٫٠٠٠ في جانب العقوبات الاقتصادية والحربية اذا اقتضى الامر

عجز العالم خارج انكلترا عن ادراك قيمة هذا الاستفتاء ، عجزه عن ادراك خطر التغيير الوزاري . بل اننا اليوم لا نستطيع ان نعلم اي الحادثين كان اعظم خطراً . ولكن القدر جاء بالتغيير الوزاري موافقاً لنتيجة الاستفتاء . فقد ظهر في السنوات الاخيرة انزواء مكدونلد عن الجامعة وصحبهُ عطفهُ على موسوليني . ولكن بولدون لم يكن مبرّأً في سياسته مثل هذا الشعور الشخصي . ثم ان السر جون سيمون كان رجلاً دقيقاً بارعاً التحليل ، ولكنهُ كان لا يستجيب لنداء العاطفة . وعلى كلٍّ كان ضعف ايمانهِ بالجامعة مما لا يتفق والنزعة السلمية في الشعب البريطاني ، على ما اكدتها نتائج « استفتاء السلام »

ولكن العامل الفاصل كان الرأي العام البريطاني نفسهُ . فمهما ان هذا الرأي العام ، النزّاع الى السلام في بريطانيا ، كان مثّراً بدعاية قوية نظّمها دعاة السلام البريطانيون . . ولكن دعاة السلام في بريطانيا ، ليسوا من الموسوسين ، بل من رجال السياسة الذين يقدرون حقائق السياسة حق قدرها . فالنزعة السلمية البريطانية نزعة واقعية ، تمتدُّ اصولها الى النواحي الدينية والانسانية في الخلق البريطاني . فهي ليست ، على ما يرى بعضهم ، ستارٌ « للامبريالية البريطانية » . ان عشرة الملايين من الانكليز ، الذين وافقوا على وجوب تأييد بريطانيا للجامعة

وتعزيز السلامة الاجماعية وتنفيذ لنظام العقوبات ، يعنون ما يقولون . فانهم مصممون على تحمّل تبعة الامبراطورية البريطانية ، كما يطلبونها من كل دولة تنتهك عهد الجامعة اليوم او غداً . بل انهم مستعدون للتخلّي عن الهند والمستعمرات البريطانية لتدخل في نظام الانتداب الذي وضعتهُ جامعة الامم

وليس يهمنا ان نعلم هل هؤلاء الملايين العشرة يمثلون اكثرية الشعب البريطاني ، او لا ، لانهم على كل حال يمثلون اكثرية العناصر الفعّالة في توجيه سياسة بريطانيا ، وهذا كلّ ما يهمّ في هذا الصدد . وقد اثبت الانتخاب البريطاني ، الذي تمّ في ١٤ نوفمبر الماضي ان النزاع السياسي بين الاحزاب البريطانية ، يدور في الغالب على الفوز بأكثرية مليون او اكثر قليلاً من الناخبين. فالاكثرية التي نالتها حكومة المستر بولدون لا تزيد على مليون ونصف مليون من الناخبين ، على مجموع الذين اقترعوا في جانب خصومها . فمليون من الناخبين يميل الى هذه الناحية او الى تلك ، يعني في بريطانيا ، تغيير الحكومة او انقلاب النظام القائم. فاذا اعتبرت هذا وعلمت ان « استفتاء السلام » أسفر عن اجماع عشرة ملايين من الناخبين الانكليز على تأييد جامعة الامم تأييداً فعّالاً ادركت ، لماذا اصغت الحكومة البريطانية الى صوت الشعب الصريح

فهل يسع الحكومة ان تتجاهل كلّ هذا وقد تمّت الانتخابات وفازت بالاكثرية المطلوبة؟ هل يسعها ان تخدع الناخبين ؟ كلّ من يعرف شيئاً عن تاريخ انكلترا الحديث ، يعتقد ان هذا غير مستطاع . فانكلترا هي الدولة الكبيرة الوحيدة ، التي فيها رأي عام مستقلّ عن الاحزاب السياسية والصحافة ، ويؤثر تأثيراً قوياً متواصلاً في سياسة الحكومة . فكل حكومة تسير سيراً مناقضاً لاتجاه الرأي العام البريطاني ، لا تلبث حتى تضطرّ الى حل البرلمان واجراء انتخابات جديدة ، كانت اكثريتها ما كانت . والحكم الفاصل في الانتخابات الجديدة هو هذه الملايين التي تعين اتجاه التاريخ البريطاني

وكان القدر اراد ، ان تجيء هذه المحنة تبتلي دعاة السلام الانكليز في الحين الذي جاءت فيه ، فحملت دعاة النزعة الامبريالستية على التعاون مع دعاة السلام او الانضمام اليهم . فلنا ان احد عشر مليوناً من الانكليز اعربوا في يونيو الماضي عن رأيهم في وجوب وضع خطة لتعزيز جامعة الامم وتأييد هذه الخطة من ناحية انكلترا . ولكن هؤلاء ليسوا الامة البريطانية كلها . بل هناك ملايين من الانكليز ينظرون الى جامعة الامم بكثير من الريبة . ملايين اجمعت ، على اختلاف النوازع والبواعث ، على الانجاب بموسوليني . ولكن موسوليني نفسهُ فرّق شملهم ؛ لا لانهُ هدّد مصادر النيل الازرق وخط المواصلات الى الهند واستراليا ، لان هذا كلهُ كان مضمّناً في سياسته الحبشية ، ومع ذلك لم يرمكدونلد ولاسيمون باعثاً يدفعهما الى ذكر الحبشة

عند اجتماعهما به في ستريزا في ابريل الماضي . ولكن بعض ملاحظات موسوليني ، التي ذاعت عن طريق الدوائر الدبلوماسية في هيئة لدن الاجتماعية ، وبعض المقالات الموحى بها في صحف ايطاليا ، اثارت قلقاً واضطراباً في صدور المعجبين بموسوليني من الانكليز ، ومن هذه الاقوال قولهم « ان البحر المتوسط بحرنا » وان الاسطول البريطاني اصبح لا يقام له وزن ، وهذا شيء لا تسلم به الكرامة البريطانية ولو كان صحيحاً . وفي هذا الصدد اخطأ موسوليني التقدير ، لانهُ وحّد الصفوف في انكلترا بعد اختلاف وتنافر

والخلاصة ان انكلترا الآن تجري على خطة تعزيز الجامعة وتأييدها لاسباب ثلاثة . فاولاً : لان الامة الانكليزية تنزع الى السلم ومنع الحرب . وثانياً : لانها تخشى ان يعقب انحلال الجامعة فوضى عامّة في اوربا . وثالثاً : لان عمل الجامعة اذا اصاب النجاح يعني حماية مصالح بريطانيا عندما تهدَّد حماية اجنبية . نعم ان هذه العوامل الثلاثة ، ليس احدها مفصولاً فصلاً واضحاً عن الآخر . فالنزعة المثالية الى السلام ، والمصلحة الامبراطورية ، وخطط الاحزاب الانكليزية ، تندمج بعضها في بعض ولكن تيّار الرأي العام ، الناشىء عنها ، متجه في اتجاهٍ واحدٍ لا شكَّ فيهِ

فرنسا

ولا يمكن ان يقال كل هذا عن فرنسا . فالمسيو لافال التي خطبته العظيمة في جنيف ، غداة خطبة هور . فظهر فيها ، وهذا كان قصده ، يظهر المتفق مع هور على كل شيء . ولكن النزعة السلمية في فرنسا ، وحالة فرنسا المادية ، تختلفان عما هما في انكلترا من كل وجهٍ . كانت وزارة لافال ضعيفة منذ تأليفها ، بقدر ما كانت وزارة بولدون قوية . وإذا كانت بريطانيا شاعرة الآن بقوتها ، فان فرنسا شاعرة بضعفها . وهذا الشعور بالضعف ، هو في الغالب سبب الانقسام الذي يسم حياة فرنسا العامة لا نتيجة لهُ

فرنسا ، لم تبلغ من الناحية الذهنية ، الى المقام العظيم الذي احرزته سنة ١٩١٩ بل انها في السنوات ، التي بدت فيها قوتها في الذروة ، لم تفقد ما يعبر عنه علماء النفس « بشعور النقص » بالقياس الى المانيا المنظوية . وهذا جعل سياستها الخارجية متقلبة . ومن هنا نشأ عنادها ، وعجزها عن اتباع خطة المسالمة ، والتسليم بأشياء في حينها ، وهي صفات القوي يحس بقوته

فرنسا هي التي ابدعت فكرة السلامة الاجماعية ، وجعلتها هدف سياستها الخارجية . ولكنها عند ما ابدعت هذه الفكرة ، كانت دائماً تفكر في سلامتها من المانيا ، وسلامتها من المانيا يعني المحافظة على النظام الاوربي الذي وضع سنة ١٩١٩ اي ابقاء المانيا مكبوتة . فشعور

فرنسا بالضعف كان بالقياس الى ما رأته في هذا النظام الاوربي من الصدوع ، وقد بلغ ذعرها غايته في سنة ١٩٣٣ عندما تقلد هتلر ازمة السلطان على المانيا

هذا الاحساس يؤثر في نزعات سياسة فرنسا الخارجية وأساليبها . نعم ان فرنسا امة نزاعة الى السلام . ولكن هذه النزعة تشطر الامة بدلاً من ان توحد صفوفها . فدعاة السلام في فرنسا ، ليسوا من المحافظين (بالمعنى الفلسفي لا السياسي الحزبي) بل من المتطرفين . والدعاية السلمية في فرنسا ، تسير في الغالب جنباً الى جنب مع الدعاية الشيوعية . ولذلك ينظر اليها المحافظون نظرهم الى فرحة تضعف القوة الوطنية واذن فهي في نظرهم عمل غير وطني

ولذلك يغلب الظن ان الهوة بين اليمين واليسار في فرنسا ، ليست مما يسهل ردمهُ . ويقول بعض الكتاب الاجانب في فرنسا ، ان حالة فرنسا الآن تتسم بما كانت تتسم به حالة المانيا سنة ١٩٣٢ اي قبل عهد هتلر . فالبلاد مقسومة معسكرين متقابلين ، والبلاد شاكية السلاح ، ولا يعلم احد ما يكون مدى سلطة الحكومة ، اذا شرع الناس في استعمال سلاحهم

ثم ان كلاً من هذين المعسكرين ينظر الى الآخر بعين الريبة ، ولكلٍّ منهما آراء في جميع المسائل الحيوية تختلف اختلافاً بيّناً عن آراء الفريق الآخر . فالانتعاش الاقتصادي في بريطانيا ، قد ازال من السياسة البريطانية ، ما كانت تتصف به من المنافسة الحزبية العنيفة ، قبل منتصف سنة ١٩٣١ ، حالة ان سوء الحالة الاقتصادية في فرنسا قد زاد هذه المرارة وغذّاها . وما يخشى الآن هو ان يفضي ذلك الى انفجار . ثم ان الانتعاش الاقتصادي في بريطانيا مكّن الحكومة من موازنة الميزانية وخفض بعض الضرائب ، واعادة ما كان قد اقتطع من نفقات الاعانة الاجتماعية . اما حكومة فرنسا فتصدالآن الى القيود المالية ، وهذا مما يجعل الحالة في فرنسا شبيهة بحالة المانيا في عهد بروننغ سنة ١٩٣٢ من النواحي السياسية والاقتصادية معاً ، وسياسة القيود مقضيٌّ عليها بالحتمية في فرنسا ، كما قضي عليها في المانيا

ان مشكلة المسيو لاڤال عسرة على الحلّ . (استقالت وزارتهُ ونحن نقل هذه السطور ولكن المشكلة التي واجهها هو يواجهها خلفاؤهُ الى ان تصلح الحال اذا كان اصلاحها ممكناً) ولكنهُ مضطر الى سلوك الخطة التي يسلكها . فهو ليس حرّاً . ان الانقسام في صفوف الامة ، مثّل كذلك في صفوف وزارته . وسياسة الاتفاق بالمسالمة التي يسعى الى فرضها في جنيف في النزاع الايطالي الحبشي ، هي السياسة التي يحتّم عليها اتباعها في سياسة بلاده الداخلية بين الاحزاب المتنافرة . ففي ناحية ترى المحافظين الفرنسيين وممثليهم يقيمون وزناً كبيراً لصداقتهم الجديدة مع ايطاليا ، وفي ناحية اخرى ترى ممثلي اليسار يهدّدون بأسقاط الوزارة اذا رضي لاڤال ان يؤيد بريطانيا في جنيف . ولا ريب في ان هريو وبونيه وماندل يستقيلون في نفس اليوم الذي يظهر

لهم فيه ان لاڤال منحاز ضدّ انكلترا . ولكن ليس بين ساسة فرنسا رجل يرغب في ذلك الآن . لان كلّ وزارة تخلف وزارةً من الوسط ، لا بدّ ان تكون متأثرة بقوة الشيوعيين ويرجح بعضهم ان الانتخابات الفرنسية القادمة سوف تسفر عن نقص ممثلي الراديكاليين الاشتراكيين والاشتراكيين وزيادة في ممثلي الشيوعيين . وعندئذٍ ، على الاكثر ، لا بدّ من الفصل في ازمة فرنسا الداخلية اذا لم تضطرّ فرنسا الى ذلك ، عند اخراج الفرنك عن قاعدة الذهب فيفضي ذلك الى تغيّر مشهد الحياة العامة في فرنسا . ولكن لاڤال لا يستطيع ان يفعل ذلك الآن . ولا يمد ان يكون تعيين وزارة من احزاب اليسرة ، واخراج الفرنك عن قاعدة الذهب ايذاناً بنشوب حرب اهلية

هذا هو الشبح المخيف ، الذي يتعين على زعماء فرنسا ان يسيروا دفة سياستها الخارجية في ظلّه القاتم وليست الحالة الداخلية وحدها باعث لاڤال على التردّد . بل هناك مخاوف حربية كذلك . ان الكابوس الذي يقلق نوم كثيرين من الفرنسيين ، هو كابوس حلف عسكري بين المانيا وايطاليا قد يندفع اليه موسوليني يأساً وقنوطاً : وماذا تفيد جميع الاساطيل البريطانية ضدّ هجوم على فرنسا من الجيوش الالمانية والايطالية مشتركةً ؟ عندئذٍ يتحتم على فرنسا أن تواجه هذا الهجوم وحدها . فتحالفها مع روسيا ، لا تجدي كثيراً ، ودول الاتفاق الصغير ، لا بدّ ان تكون مشغولة بمشكلاتها الخاصة . ولو كانت انكلترا قوية في البرّ ، كما هي قوية في البحر لما ترددت الامة الفرنسية في الاختيار دقيقة واحدة . ولكن بعد ان أصبحت المانيا شاكية السلاح ، اضحت فرنسا تشعر بوجوب البحث عن عون حربيّ ، فوجدت ذلك في موسوليني ، واقتنعت به ، حتى شجر الخلاف الحبشي ، فوقفت فرنسا حيرة بين لندن وروما

على مفترق الطرق

فاوربا الآن واقفة على مفترق الطرق . وتطور الاحوال يقتضي اتخاذ قرار ينطوي على اي طريق تختار . ان معظم الدول الاوربية ، ليس من فريق الدول الكبيرة . بل من الدول الصغيرة والمتوسطة . فالبلدان السكندينافية وهولندا وسويسرا ، والدول التي قامت على انقاض امبراطورية النمسا والمجر ، ودول البلقان ودول بحر البلطيق ، اخذت تحس ، بعد قيام موسوليني وهتلر ، بضعفها . وجميعها ترى في جامعة الامم ملاذها الوحيد والاخير . وجميعها ما (عدا دولة او دولتين) مغتبطة ان تتبع زعامة بريطانيا في سعيها الى تحويل الجامعة إلى أداة لحفظ السلام ولحماية اعضائها من الاعتداء عليها . وليس بينها من تهشّ الحبشة ، او توازن القوى في البحر المتوسط او البحر الأحمر . ولكنهنّ جميعاً ينظرنَ الى تدخل الجامعة في مشكلة الحبشة ، على

انهُ تمثيل ، لما يمكن ان يطلب منها في نطاق اوسع جدًّا في اوربا غداً . وانهنّ لير جون انهُ اذا نجح هذا التمثيل فلن يجرؤ احد بعدئذٍ ان يرفع الستار عن الرواية نفسها ، ويعتقدن انهُ اذا نجحت الجامعة أنشأت بذلك سابقة يجعل عملها في المستقبل ، اسهل واسرع واشد فعلاً . وهذا يفسر السرعة التي لبت بها خمسون دولة دعوة جنيف مما كان باعثاً على الدهشة ، حتى في جنيف نفسها .

روسيا

ان الخوف من المانيا ، وهي دولة كبيرة خارج نطاق الجامعة وماضية في التسلح على قدم وساق ، هو العامل المسيطر على موقف روسيا . فالدعوة الى السلام ، لبواعث انسانية ، بعيدة عن الذهن البولشفي ، بعدهُ عن الذهن المتشبع بنزعة موسوليني القومية المكتسحة . ثم ان الجامعة في نظر روسيا ، أداة اكثر منها عقيدة . فالعوامل التي توجّه سياسة روسيا الخارجية ليست الرغبة في اقامة النظام الاوربي ، على اسس تجعلهُ احسن مما هو ، لان ذلك في رأيها لا يتمّ الاّ باتصار الشيوعية . ولا هي الرغبة في تحريم الحرب كأداة للسياسة الدولية ، لان حرب الطبقات في رأيها هي صفة لا يمكن ان تنفصل عن النظام الرأسمالي

بل هناك ثلاثة اعتبارات رئيسية ، دفعت روسيا الى وقوفها موقف المؤيد للجامعة وخطة فرض العقوبات . فقد انقضت ايام « رابالو » عندما اتفقت روسيا والمانيا بحكم انهما الدولتان المنبوذتان من مجامع الدول الغربية . وروسيا الآن تحسُّ ان المانيا تهدّدها في الغرب . واليابان تهدّدها في الشرق . ولهما ما يحملها على هذا الشعور . ففي جميع الخطب والتصريحات التي القاها الفوهرر مسهباً عن تمسكهِ باهداب السلام ، لم يهمل الاعراب عن بغضهِ وعدائهِ لروسيا . وهذا العداء هو العنصر الحيوي في الاشتراكية الوطنية الذي تحاك حولهُ جميع خططها الخارجية . وقد زاد في رأي الروس ، خطر المانيا على روسيا منذ تقاسمت المانيا وبولونيا . فالسوفيت يحتاجون الى حماية حدودهم الغربية ، وهم يسعون الى الفوز بهذه الحماية في جنيف لان المحالفة العسكرية مع فرنسا والاتفاق الصغير ، لا يمكن ان تصبح فعّالةً الاّ عن طريق جنيف . ثم ان روسيا تعلم حقَّ العلم ان المحالفة الروسية الفرنسية ، غير مرغوب فيها بوجهٍ الاجمال في فرنسا المنقسمة الى فريقين فريق نزعتهُ شيوعية وفريق ميالٍ لهُ نزعةٌ فاشستية . واذن فالحاجة عظيمة الى الجامعة لتكون صلة الاتصال ، حيث تتفق حاجة فرنسا الى ضمان سلامتها مع حاجة روسيا الى حماية حدودها الغربية

الاّ ان هناك عاملين آخرين ، كلاًّ منهما يكفي ليحمل روسيا على انتهاج هذا النهج في جنيف فالفاشستية ستصاب في الحبشة بضربتها القاضية في رأي الروس . واذا تحطمت قوة موسوليني على صخرة

الجامعة ، فالسائد ان مصير قوة هتلر لا يختلف كثيراً عن مصير قوة موسوليني . وهذا الباعث هو احد البواعث التي تحرك احزاب المعسرة في فرنسا وانكلترا ولكنهُ ليس الباعث السائد على توجيه سياستها. واخيراً ان سياسة روسيا الخارجية متجهة خاصة الى نقطتين : الشرق الاسيوي والشرق الاوربي . كلاهما مضطرب حافل بالخطر . بل أن المشكلة الحبشية تكاد تكون صغيرة من الصغائر ازاء اعتداء اليابان على البرّ الاسيوي . وليس بين دول اوربا الاّ دولة واحدة غير روسيا يهمها تطوُّر الحوادث في الشرق الاقصى وهي انكلترا. فضغط النزعة الامبريالستية الفاشستية في اوربا وتطوُّر حوادث الشرق الاقصى ، يجعلان مصالح انكلترا وروسيا متفقة في الشرق والغرب معاً . وهذا اتجاه لا يمكن ان نبالغ في تقدير تأثيره في المستقبل

ايطاليا

واخيراً ايطاليا . فياستها هي اللغز الوحيد ، في رواية معقدة ولكنها مفهومة الفصول والمغازي . قد يفوز المؤرخون في المستقبل بالكشف عما يطلبهُ موسوليني حقيقة في حملته الحبشية ، ولكن التفسيرات الرسمية ليست الاّ امتهاناً للذكاء الانساني

الاّ ان ضغط الحوادث الذي حمل الدكتاتورية الايطالية على ان تفعل ما فعلت ، كتاب مفتوح. فقد انقضت سنوات وموسوليني ينادي بأن سنة ١٩٣٥ ستشهد تأسيس الامبراطورية الرومانية الجديدة . وقد وُجّهت جميع الاستعدادات العسكرية في ايطاليا ، توجيهاً خاصًّا على هذا الاساس. بل ان قسم الدعاية اعدَّ الرأي العام الايطالي ، لهذه السنة الفاصلة في تاريخ ايطاليا الحديث . فمن يحاول ان يبحث عن البواعث الاقتصادية وراء كل هذا يخطىء ، كما يخطىء كل من يحاول أن يفسّر النزعة القومية تفسيراً اقتصاديًّا . والحبشة من الوجهة الاقتصادية ، لا تجدي ايطاليا فائدة ما (انظر مقالنا الافتتاحي) ولا يزال الرأي في مصادر ثروة الحبشة الطبيعية ، وهل تصلح للاستغلال ، رأياً منقسماً . واذا فرضنا ان ايطاليا اكتسحت الحبشة فهي تحتاج حينئذٍ الى الاموال الاجنبية لاستغلال مصادر ثروتها الطبيعية ، وما يجنى من فائدة هذا الاستغلال لا يكفي لتوفية نفقات الحرب . ولو اكتفى موسوليني بالتغلغل في الحبشة تغلغلاً اقتصاديًّا سلميًّا ، لفاز في النهاية بمساعدة بريطانيا المالية . ولكنهُ لم يبحث عن منافذ اقتصادية بل عن انتصارات عسكرية . انهُ لم يطلب المال بل القوة . وهذا ألب الامم عليه

ولا تستطيع الشعوب الانكلوسكسونية ان تفهم هذا الاّ اذا فهمت القوى الداخلية التي تتفاعل في عالم فاشستي . ان الفاشستية نشأت اولاً على انها حركة شباب . فشباب ايطاليا خرج من مخادق الحرب خائب الامل مرير النفس ، فوجد حكومة ليس في يدها شيء تقدمهُ لهُ .

فقلب هذا النظام ووضع ممثليه في مناصب الحكم . وقد انقضت الآن ثلاث عشرة سنة ، ونشأ جيل جديد من الشبان . هذا الجيل تمرّن منذ كان في السادسة من العمر ، عن طريق الفرق الفاشستية المختلفة ، على خدمة الحزب ، فأنشأت فيه هذه المرانة مطالب . والحزب الذي يمرّن اعضاءه على خدمته يجب ان يكافئهم مكافأة طيبة . اي انهُ عليه تبعة نحوهم . ولكن الحزب عاجز عن ذلك ، فليس في الدولة مناصب لجميع افراد هذا النشء الجديد ، لان القابضين على زمام الحكم من الفوج الاول لا يزالون شباناً او كهولاً اقرب الى الشباب . والنشء الجديد لم يتمرّن من الناحية الذهنية على عمل خاص . وهذا خطر كبير يدركهُ موسوليني حق الادراك لانهُ استغلّ اوّل من هذا القبيل تقبض على مقاليد الحكم . واذن فيجب عليه ان يفتح لهؤلاء الشبان باب المغامرة ، ويفتش لهم مناصب يشغلونها ، كانت النفقة ما كانت

والظاهر انه قدر ان النفقة تكون اقل كثيراً مما هي . وقد كان خطأه الكبير في حكمه على ما يكون موقف بريطانيا . فانهُ لم يحسب حساباً لبريطانيا تقاومهُ مقاومة فعّالة ، وليس خطأهُ هذا ناشئاً عن عدم فهمه لمصالح بريطانيا ، بل لانهُ ظنّ ان بريطانيا اضعف مما هي حقيقةً . فبحكم نزعته الدكتاتورية الفاشستية حسب ان الدمقراطية البريطانية ضعيفة . واعتماداً على اتساع نطاق الدعاية السلمية في بريطانيا خيّل اليه ان بريطانيا لن تحارب بحال من الاحوال . وقد عزّز هذا الرأي في نفسه موقف مكدونلد وسيمون . فانهما على الرغم من استعداده العسكري لم يوجها اليه محذيراً توبيخاً الا في الصيف (١٩٣٥) . فايطاليا وقعت الآن في المأزق ، والدكتاتوريات من اضعف الحكومات لانهُ لا يسعها ان تتراجع ولا ان تعترف بخطإ ، بل يجب عليها ان تحاول السير الى الامام على الطريق التي اختارتها

هنا موطن الخطر في اوربا ، كائنة ما كانت النتائج التي يسفر عنها تطبيق العقوبات الذي شرع فيه في ١٨ نوفمبر الماضي ، او الحملة العسكرية الايطالية في الحبشة . فوقف ايطاليا لا يرجى ، الا اذا اتفق موسوليني مع الجامعة ، اي مع انكلترا . اما كيف يمكن الوصول الى هذا الاتفاق ، ومتى ، فمثار علام الغيوب الآن . ولكنني على كل حال ارجّح انهُ لا يمكن الوصول الى هذا الاتفاق باشتراك بريطانيا وفرنسا وايطاليا في اقتسام اسلاب الحبشة . فانكلترا تعلم انها بذلك تهدم الجامعة ، وليس عند موسوليني عوض منها

ليس من غرض هذا المقال تصوير ما قد ينجم عن حبة ايطاليا ولكنني ارى ان اعظم النتائج لا يظهر في افريقيا او البحر المتوسط بل في اوربا الوسطى . فانما الآن ، كما كانت من ٢٥٠ سنة ، مفتاح الحالة الاوربية ، لان خط توسع المانيا ، يتقاطع هناك مع الخط الواصل بين فرنسا والاتفاق الصغير ، ويلمس النظام الذي حاولت ايطاليا ان تنشئهُ في حوض الدانوب .

روسيا والمدنية الحديثة

بقلم ابراهيم ابراهيم يوسف

يرحب بعض المفكرين بتعطيل تهافت أقطاب الأدب والاجتماع والاقتصاد وغيرهم على دراسة روسيا الحديثة بمجرد الشغف بكل جديد . ولكن هذه اليقظة ليست سوى ذرة من شتات الدوافع التي حدت بهؤلاء وهؤلاء للوقوف على كنه تطور التفكير الروسي الحديث لمعرفة مداه وأثره في المجتمع البشري لكي يتخذوا عبثهم ازاءه ، إذ أن عبء التبعة التي يحملها أقطاب الثقافة اليوم أمام الجيل الحاضر والاجيال المقبلة أصبحت أعظم مما فرض على سابقيهم من علماء وأدباء

وليس من خلاف بين حملة ثقافة هذا العصر ، مهما تفاوت اتجاههم الفكري ، في ان المدنية كانت وما زالت خاضعة لسنة الارتقاء ، كما يخضع لها الانسان سواء بسواء . ذلك لان المدنية من صنع الانسان بالذات . والواقع ان المدنية دائماً ابداً في فوران يتجلى في الصراع بين الناس والطبيعة ، وفي الكفاح بين فئة منهم والبقية . ولاشك في ان هذا الصراع يقوى جلة ويشتد كلما ازدادت الثقافة التحررية انتشاراً وازداد العمل بها حتى يشمل اكبر عدد ممكن من الناس . كذلك ينتهي هذا الكفاح حالما يتحقق وجود مجتمع تزول فيه الفوارق الموضوعة بين الناس ، ولا يكون فيه بغاء لمستغِل او مستغَل ، وفيه تتوطد المساواة بين الانسان واخيه الانسان

ولقد سار الانسان بالمدنية اشواطاً حتى بلغ بها عهداً اصطلحوا على تسميته بالمدنية الغربية . غير أننا حينما نتبين أعماق الاشياء نجد اننا نعيش في حقبة من تاريخ البشرية نشهد فيه صراعاً ظاهراً بين مدنيتين : المدنية الغربية العتيقة والمدنية الروسية الحديثة . ولسنا في حاجة الى ذكر ان المدنية الغربية تعبر عن شعور الملأ (السادة) وحدهم ، كما تشف عن نظرتهم الى مختلف الامور خلال حياتهم الخاصة . وهم في الواقع واضعو أسس هذه المدنية وان كان غيرهم ساهم في البناء . والامر على العكس في « مدنية الناس » ، المدنية التي تسعى الى تحقيقها روسيا اليوم . ومهمة هذه المدنية القدرة على التعبير عن شعور واحساس الناس كافة ، وعلى اثبات نظرتهم الجديدة الى الحياة وهذا تتولى أولاً الكفاح الثقافي لتهذيب الناس اخلاقاً دون تفرقة ، حتى اذا ما تهيأت في كل مكان أحوال تلائم حياة الانسان المتحرر الفكر ، تم تشييد مدنية شاملة يساهم في أسسها وبنائها كل شخص بقسطه . ولا تبغي هذه المدنية الجديدة ، حتى ولا من الناحية الفنية المحضة ، تصوير وتسجيل كفاح يدور بين الناس كما كان يظن . كلا ! بل غايتها من الوجهة الفنية التعبير عن تاريخ الانسان العامل (لا الخامل) ، وعن تاريخ الصراع بين الناس والطبيعة ، وعن تاريخ كفاحهم ضد الاستبداد (راجع كتاب صور واشرات لمؤلفه كارل رادك

(Karl Radek : Portraits & Pamphlets) أما غايتها من الوجهة العامة فضمان حياة مجتمع تسوده الحرية الحقة والديموقراطية الصحيحة والسلام العام، توصلاً الى إسعاد الجميع من دون أي تفرقة. ومن ذلك نرى ان المدنيات التي تعاقبت على البشرية وانتهت بالمدنية الغربية لم تكن سوى «مدنية الفرد».

اما تلك التي يتمخض عنها الجيل الحاضر فهي «مدنية الجماعة». ولقد تنبأ بكل ذلك «كارل ماركس» في كتابه «رأس المال»؛ اذ قال: «لقد كانت الافكار السائدة في كل زمن هي افكار الطبقة السائدة وحدها. وبدلاً من المجتمع الرأسمالي القديم وما فيه من طبقات وتزاع بين الطبقات سيحل اتحاد يكون فيه النماء الحر لكل فرد أساس النماء الحر الجميع». ولما كان اظهر طابع للمدنية الفردية هي الانانية التي تمخضت باذلال المجموع للفرد، فانهُ يحسن بنا ان نذكر رأي العلامة فرويد في الاجرام والانانية حيث يقول في (Dostoevski and Parricide by Siegmund Freud) «يجب ان يتوافر شرطان أساسيان للاجرام: اولها الانانية المطلقة، وثانيها نزعة الاهلاك والابادة. وكلاهما مرتبط احدهما بالآخر. ويرجع السبب في نشأة الاجرام الى انعدام التقدير العاطفي الصادق لاشياء انسانية صرفة». وعندما نطبق هذا الرأي على المدنية الغربية ذات الطابع الاناني يظهر لنا بجلاء انها مدنية متسمة بالإجرام في صميمها ومجموعها

﴿الفارق بين الثقافتين الاوربية والروسية﴾ لهذا ادرك حملة ثقافة هذا العصر بأنهُ لا سبيل الى اصلاح المجتمع البشري بالوسائل والادوات المادية والمعنوية التي تقدمها لنا المدنية الفردية. بل لابدَّ من انتهاج سبل اخرى لمدنية على النقيض من هذه — تلك هي المدنية التجمعية. وفي العمل التجمعي للمدنية التجمعية يتسع المجال لظهور الشخصية، بل ولظهور أكبر عدد ممكن من الشخصيات. وتعتبر العمل التجمعي اول شرط اساسي للحياة. ويذهب «إنجلز» الى حد آخر من المنطق في كتابه (Dialects of Nature by Engels) فيؤكد بأنهُ «لنا ان نقول، ونكون في قولنا صادقين، بأن العمل هو الذي خلق الانسان» وهنا يسأل كثيرون: ولكن ما هو العمل؟ ولا يشفي الغليل سوى ايضاح كارل ماركس في كتابه رأس المال اذ يقول بأنَّ «العمل هو في الاعتبار الاول تآزر بين الانسان والطبيعة، وفيه يبدأ الانسان بتنظيم وتذليل التنازع المادي القائم بينهُ وبين الطبيعة وفق منهجه. وهو حين تدب الحركة في يديه ورجليه ورأسه، وهي قوى بدنه الطبيعية يواجه الطبيعة كقوة من قواها فيعمل لتشكيل نتاج الطبيعة وفق حاجاته. ثم هو في عمله هذا الذي يتناول عالمه الخارجي بالتغيير، انما يعمل في الوقت ذاته على تغيير طبيعة نفسه». غير ان الانسان ليس لهُ ان يصارع الطبيعة بمفرده بل عليه ان يصارعها ضمن مجتمع خاص التشكيل وبوسطه (راجع كارل ماركس Critique of Political Economie. وما كان هذا العمل

التجمعي لينتج ثماره دانية حتى تعم الثقافة بين الناس ، اذ ان الثقافة أولى اسس مدنية الجماعة . وهي في ذلك على نقيض من المدنية الغربية التي يقول فيها احد اعلامها « برتران رسل » Bertrand Russell في احدى محاضراته بأنها « قائمة على اسس اخرى غير العلوم » . ويعني بذلك انها اسست على الغزو والفتح الذي قامت به اوربا الغربية في قسم كبير من العالم . ويزيد « هولدين » ايضاح ذلك في (J. B. S. Haldane : The Scientific Point of View) اذ يقول بأن « المدنية الاوربية قائمة على عدم التجانس ، اذ ان اساسها المادي علمي ، اما اساسها الثقافي فيرجع الى عهد ما قبل العلوم . وحالة العالم اليوم تدل دلالة واضحة على ان محاولة اوربة ستظهر في القريب العاجل لايجاد هذا التجانس » . ويتنبأ « هولدين » بأن مصير الطابع الخاص لثقافتنا سيكون نفس مصير الحضارات البائدة » ثم نجده يؤكد لنا في بحثه The Place ofScience in Western Civilisation بأن مستقبل المدنية لا يتوقف الى حد كبير على الاكتشافات والاختراعات العلمية فقط ، بل يتوقف كذلك على الآراء العلمية والنظرة العلمية التي تشمل مناحي الحياة »

﴿ الازمة في المدنية الاوربية ﴾ ومجرد عثور هؤلاء العلماء وأمثالهم من حملة المدنية على مواطن الضعف منها في الأسس يدل دلالة لا شك فيها على أن المدنية الغربية في أزمة لا سبيل الى علاجها . «ولدل» الأزمات التي تنتاب المدنية في كافة مظاهرها هي أشبه ما تكون بالجبال التي تتصدع أثر زلزال عنيف ، فيتيسر لعلماء الجيولوجيا دراسة تاريخ التطورات الارضية بشكل أدق وأتم من أي وقت آخر ». وكذلك الحال في هذا العصر ، إذ ينكشف للمفكرين منا في كل يوم وجه من وجوه فساد المدنية الغربية . وها نحن نجد أن الازمات قد اجترفت العالم الغربي من جميع نواحيه . فقد تفشت الازمة السياسية في مواطن المدنية الغربية ، وذلك لان قانون ابتلاع القوي للضعيف ما زال دستوراً معمولاً به . وما زالت الحرب هي السلاح الاول والاخير لحل المشاكل . ونرى خلال ذلك الملايين من النساء والاطفال والعجزة مهددين بالجوع والفقر وعدم الانتاج ، بينما تهدر أرواح عائليهم في ميدان القتال . وهم في ذلك مستسلمين لنظام ثبت لمفكريهم فساده . وإلى جانب هذا نجد الأزمة الاقتصادية قد تفاقمت فعم ضررها واشتد هولها ، ولا تزال تتوغل وتتسع كلما تقدم الزمن . ولا وزر على أحد في ذلك ، بل الذنب يقع على سوء النظام الاقتصادي الذي سمحت مدنيتنا الغربية به ، فأباحت لعدد من الافراد أن تكدس لديهم الاموال في حين أن الجماهير تفتقر اليها . فكان عدم التجانس هذا سبباً في الارتباك الذي هي فيه العالم ، ففضل أن تقدم الحنطة للحيوان بدلاً من أن تملأ بها البطون الجائعة . كما فضل أن تباع الأمواج أكداس الجبن عوضاً عن أن تنشط بها الأعصاب المتراخية . ويكفي ذلك الفساد الذي انتجته الأزمة الاقتصادية واخطره العطلة ، وذلك الذي انتجته الأزمة السياسية واشده

الاذلال لخلق أزمة اجتماعية تجرف المجتمع الى الحضيض. وقد ظهرت دلائلها في تفكك الاسرة وتخاذلها وتخاذل الاسرة وتقوض أركانها نذير بتخاذل المجتمع وتقوض أركانه . وما كان ذلك ليكون لو لم يكن النظام الاجتماعي الذي أيدته مدنيتنا الغربية فاسداً من اساسه . وليس أدل على فساد هذا النظام من تطرق الازمة إلى الثقافة . وارزع وصمة يوصم بها هذا العصر الذهبي للمدنية الغربية هي أن الثقافة الحقيقية لا أثر لها يذكر في المجتمع إلا لدى فئات قلائل . وحتى هؤلاء كثيراً ما تتغلب عليهم الانانية فاذا هم أعداء للثقافة ذاتها ، إذا ما خرجت عن دائرتهم . فاقتصارها عليهم ومعاداتهم لها اذا ما افلتت إلى غيرهم لدليل على أزمة ثقافية بلغت طور الانحدار. ذلك الطور الذي دفع بأغلبية المثقفين الى الماديات وانصرافهم اليها دون الروحانيات (تكثر المراجع لهذا الفصل لاعلام الثقافة منهم Spengler, Childs, Toad, Davies وغيرهم

﴿ الاتجاه الحتمي في المدنية الغربية ﴾ ويحق القول بأن هؤلاء الاعلام الذين أبانوا عن مفاسد المدنية الغربية انما كانوا في عملهم شبه ثائرين على ناحية من نواحي الاستسلام لنظام تؤيده الانانية والاثرة في جميع اشكالها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية . على ان الواقعيين يرون أن التطورات التي لازمت المجتمع منذ عشرات السنين كان يتخللها نزعات ترمي الى مثل عليا لا تطيقها مدنيتنا الفردية . ويقول كارل ماركس في كتابه رأس المال « ان النظام الرأسمالي نفسه يعمل في غير وعي على تهيئة الطريق للاشتراكية ، وذلك بوضع المئات والالوف من العمال في مصنع واحد يعملون فيه بطريقة تجمعية » وليس غريباً ان يلقى ماركس في رأيه هذا تأييداً من « أسفالد اشبنجلر » فقد ذكر الاخير في كتاب «سقوط الغرب» ما نصه : «نحن جميعاً اشتراكيون علمنا بذلك او جهلناه ، رضينا به او لم نرض . وحتى مقاومة الاشتراكية تحمل طابع الاشتراكية . والرجل القدري يتقبل الحياة كما هي ، ولكن الاشتراكي يريد تنظيم الحياة وتبديلها شكلاً ومعدناً ليملأها من نفس روحه . والقدري يساير . اما الاشتراكي فيأمر . ويود الاشتراكي لو ان جميع العالم يتسم بطابعه وتفكيره» . ويذهب كارل رادك الى ان التطفل في مدنيتنا الغربية نحو العمل التجمعي أبعد غوراً من كل هذا ، اذ يقول: «ان العلامة الاوربي حين يعمل في مختبره المنعزل عن العالم او يدرس منفرداً في مكتبه لا يفكر كثيراً في الحقيقة الكائنة وهي انه يعمل ويدرس بوسائل وادوات قدمها له من سبقه ، بل هو يسير في بحثه وتفكيره وفق أسس أنجزها له المجتمع جملة . وان الافكار التي تزيد الثروة العلمية هي تاج خلق تجمعي تعاونت فيه الاجيال السابقة . واكثر الناس نسياناً لهذه الحقائق هم اولئك الكتاب الذين يزعمون بانهم يكتبون بحض وحيهم ويبرزون اكتشافهم استبصاراً حينما يسمون بفكرة « الثقافة التجمعية » . ولكن لا سبيل الى الرقي والتقدم نحو مستوى علمي أرفع بغير ثقافة تجمعية»

﴿ مدينة المستقبل ﴾ ان جاز لنا ان نستخلص كلمة جامعة لكل ما تقدم بحثه فلعلها لا تكون سوى « ان المدنية الغربية لم تعد تلائم روح العصر الذي نعيش فيه » . ولا عجب ان أحس الناس بذلك وعبروا عنهُ بالعمل لا بالقول . فها هي الثقة بالمدنية الغربية تنتزع من النفوس ويتلاشى شيئاً فشيئاً الايمان بحيويتها ومقدرتها على خدمة الانسانية . ويعتقد المفكرون في صدق رأي أشبنجلر القائل بانهُ « لا القوانين التي يقدمها لنا المشرعون ، ولا الاحكام التي تصدرها المحاكم ، ولا القرارات التي تسجلها الحكومات ، ولا البلاغات التي تنشرها الوزارات ، ولا النشرات التي تذيعها الهيئات عامة أو مؤخرة ولو ساعة واحدة سقوط مدنية ما ، ان المدنيات تنهار من الداخل » . ولست اعرف معبراً عن مشكلة الانسانية اصدق من ذلك الفلاح الروسي المجهول حينما قال لماكسيم جوركي Maxim Gorki بعد ان استمع له مشيداً بذكر مزايا الآلات وحاثاً اياهُ على الاخذ بها في الزراعة وغيرها : « نحن نعلم كيف نسبح في الجو كالطيور وفوص في البحر كالاسماك ، ولكننا لم نعرف بعد كيف نعيش على الارض » . ولعلَّ اسمى ما في هذه الجملة الصدق الذي اوحى به عمق التفكير السليم وهذا الصدق ولا شيء سواه هو سرُّ « المدنية التجمعية » . ولن يكون الناس صادقين حتى يكونوا انسانيين منزهين بكل ما في معنى الانسانية من نبل . واول هذه المعاني التفاني في خدمة المجموع . ولهذا تعتمد المدنية التجمعية على جهود الناس مجتمعة لا جهود الافراد متفرقة . وفي ذلك يقول ماركس في كتابه رأس المال « ان العمل الموحد هو اول شرط لتحرر العمال . وهو اي العمل الموحد يلاشي استلال الفرد للفرد كما يلاشي استلال الشعب للشعب الآخر . وكلما قامت المنازعات بين طبقات الشعب الواحد كان في ذلك استنامته بين الشعوب المختلفة » . وبديهي ان لا يتم هذا العمل التجمعي الموحد حتى يتناول التنظيم المحكم كل مناحي الحياة . ولهذا كان من أهم الخطوات « تنظيم العلوم وتنسيقها حتى تتجه جميعاً نحو غرض واحد هو خدمة المجتمع لينتفع بها الى اقصى حد مستطاع » . ولقد عهد ذلك ثورة في العلوم جاءت عقب الثورات الصناعية والزراعية والاجتماعية . ويرى امثال البحاثة « هولدين » ان المدنية التجمعية لا شك سالكة طريقها . فهو يقول في بحثه « وجهة النظر الطبية » انهُ لمن الخبل في الرأي ان يظن بان الاسباب التي ادت الى ثورة في الصناعة والزراعة والحرب والطب لا تأتي بنفس النتيجة حالما تتطرق الى العائلة او الامة او الجنس البشري اطلاقاً »

ويحضرني في ختام هذا البحث كلمة الفيلسوف « هيجل » Hegel وهي « اننا عرفنا من التاريخ أن الانسان لم يتعلم ولم يتغط بالتاريخ » ولو أن « هيجل » كان اليوم حيًّا لرأى أن الناس قد تعلموا من التاريخ واتعظوا به . وها قد جاء دور عملهم فوضعوا اسس مدنية مستقبلة ليس فيها أخطاء المدنيات السابقة